إشارات خطاب الأقلية في عتبات رواية "سمراويت" لحجي جابر (قراءة سيمائية)

د. حمد بن محمد الهزاع

المستخلص

يدرس هذا البحث الإشارات السيميائية اللغوية ودلالاتها في عتبات رواية حجي جابر "سمراويت"؛ للوقوف على مكامن الخطاب الأقلي والوصول إلى تفسيرات ورودها في هذا العمل السردي الذي نال من التلقي ما يلفت الانتباه على مستوى النقاد والمختصين ومتذوقي الأدب وحتى عامة القراء، كونه يعالج موضوعًا وجوديًا لم يتطرق إليه روائي قبل جابر في الوسط الثقافي السعودي، بل والخليجي، ألا وهو موضوع الأقلية الإرترية في السعودية، على أن جابرا أتبع هذا العمل بأعمال أخرى تسير في الاتجاه نفسه، إلا أن أسبقية هذه الرواية تثير الفضول حول تعبيراتها اللغوية وإشاراتها، وقد سعى البحث للوقوف على الثنائية الضدية بين المركز والهامش، والتنقيب في اللغة الروائية باتباع المنهج السيمائي الذي يعتمد المقولات النظرية السيميائية من جهة، وعلى المقولات النظرية الاجتماعية التي تصف الأقليات وطريقة تعايشها مع المجتمعات التي لا تنتمي إليها انتماء كاملًا، من جهة أخرى.

Signs of minority discourse on the thresholds of Haji Jaber's novel "Samrawit" (cinemas reading)

Dr.. Hamad bin Mohammed Al-Hazza'

Abstract

The research studies the semi-linguistic signs and their connotations in the thresholds of Haji Jaber's novel "Samrawit" in order to find out the secrets of Minority Discourse and to reach the interpretations of this narrative work, which has received widely and draws attention of critics, connoisseurs of literature and even the general readers, as it deals with an existential issue that was not addressed by novelists in the Saudi cultural milieu before Jaber, and indeed in the Arab Gulf societies, which is the subject of the Eritrean Minority in Saudi Arabia, although Jaber followed this work with other works that go in the same direction, but the primacy of this novel raises curiosity about its linguistic expressions and signs. So, the research attempted to find out the opposite dualism between the center and the margin, and to explore the narrative language by the descriptive analytical method that based on semiotic theoretical statements on one hand, and on another hand, it based on the social theoretical statements that describe minorities and the way they coexist with societies that do not fully belong to.

إشارات خطاب الأقلية في عتبات رواية "سمراويت" لحجي جابر (قراءة سيمائية)

د. حمد بن محمد الهزاع

مقدمة

من الأقليات اعتدنا أن نتلقى الخطاب المختلف دائمًا، وليس الأضعف دائمًا، ومن الهامش اعتدنا أن نرى طرقًا جديدة للتعبير وإيصال الأفكار والمشاعر والرغبات، تختلف عن السائد لدى المركز، بل تقف ضده في كثير من الأحيان، واعتدنا -أيضًا- أن تكون الرواية هي النص الذي يكشف المستور ويفضح المسكوت عنه في ثنائية الأقلية والأكثرية، وثنائية المركز والهامش، حين يُغيِّبُ الخطابُ الرسمي موضوعَ الأقليات، فما لا يمكن ملاحظته طافيًا على السطح في المجتمع واقعًيا؛ يمكن أن تنقله لنا الرواية وتخرجه من قيعانه، وهذه وظيفة واحدة من وظائف الفن الروائي، الذي جعل للأقليات صوتًا مسموعًا، وقوة ناعمة تتحدى أشد القوى المجتمعية وأعتاها.

إن دراسة الرواية التي تعبر عن هموم الأقليات المغتربة، المختلفة عرقيًا وثقافيًا وحضاريًا واجتماعيًا وسياسيًا؛ ودراسة خطابها الذي يركز على ثنائية المركز والهامش؛ هي دراسة لموقع تلك الأقليات وخطابها من بلد الغربة، ومن البلد الأصلي أيضًا، الذي صار -فيما بعد- مركزًا طاردًا لها هو الآخر، وصارت لا تنتمي لأي من البلدين انتماء كاملا، فكان ذلك مدعاةً لخطاب موجه، متحامل على الواقع أحيانًا، ويحمل إشارات مباشرة وغير مباشرة تنقد ذلك الواقع، وتتموضع في عتبات الرواية وفي متنها، **وسيتناول هذا البحث** دراسة عتبات هذه الرواية للوقوف على إشارات خطاب الأقلية فيها، **ولعل السبب في تناول البحث لهذه الرواية بالذات،** هو حجم التلقي الواسع لها في الأوساط الثقافية فور صدورها، ولأنها تتحدث -وللمرة الأولى- عن واقع الأقلية الإريترية في المملكة العربية السعودية، كما أنها المحاولة الروائية الأولى لكاتبها حجي جابر، وتمثل أولى مساراته الروائية، وهو المولود في مدينة "مصوع" في إريتريا، الذي

–فيما بعد- نشأ وترعرع في مدينة جدة السعودية، تلك المدينة التي تتشكل أحياؤها القديمة الشعبية من مجموعة من الجنسيات الأخرى، ومن الكتل الاجتماعية المتنوعة، القادمة من دول في إفريقيا وآسيا وغيرها، مما شكل فضاء تعدديًا بامتياز، خلق خاصية اجتماعية ثقافية لا يمكن أن نغض الطرف عنها إذا ما تناولنا نتاج أي فرد ينتمي لتلك الأحياء والمجتمعات، وينطلق في نتاجه الأدبي من الإحساس بالشتات، والشعور بالهامشية، والصراع مع حالة الانتماء غير الكامل للمكان، ومواجهة التعددية الثقافية التي تجعل منه فردًا إشكاليًا في واقع متدهور.

كما أن من الأسباب التي جعلت هذه الرواية محل اهتمام للمتلقين؛ هو أنها حصدت جوائز قيمة تشي بقيمتها الفنية، كجائزة الشارقة للإبداع العربي في ٢٠١٢م، وكتبت عنها الكثير من المقالات في الصحف السعودية وغير السعودية، كالوطن السعودية والوطن القطرية والخليج الإماراتية والحياة اللندنية.

والبحث إذ يدرس هذه الرواية ليحاول الإجابة عن سؤال جوهري حيوي، هو:

كيف وظف الكاتب عتبات الرواية في دعم خطاب الأقلية؟

وحتى يجيب البحث عن هذا السؤال؛ فإنه سيتناول الإشارات السيميائية في العتبات ودلالاتها للوصول إلى تفسيرات ورودها في تلك العتبات، **وسيكون البحث في خطة تحتوي** على مقدمة وخاتمة بينهما ثلاثة مباحث؛ الأول مبحث نظري سيتناول مفهوم الأقلية في الخطاب الروائي، والمبحث الثاني مبحث تطبيقي سيتناول إشارات الخطاب الأقلّي في العتبات النصية الخارجية، والمبحث الثالث سيتناول إشارات خطاب الأقلية في العتبات الداخلية للرواية المختارة.

وقد بحثت عن **الدراسات السابقة** لهذه الرواية فلم أجد في قواعد البيانات المتاحة ما يتصل بها سوى مجموعة من المقالات الصحفية ودراسة محكمة وحيدة هي: "أدوات البناء الفني في رواية سمراويت لحجي جابر"، للكاتب حميدان اقطيش مطر الشرفات، الذي تناول الرواية من خلال الأدوات الفنية في الدراسة الأسلوبية، وجاءت في ثلاثة

مباحث، كان الأول فيها يتحدث عن المصطلحات الخاصة بالدراسة كأدوات البناء الفني والمتخيل السردي والسردية، فيما جاء المبحث الثاني عن بنية الخطاب التخييلي في رواية سمراويت وعرف بالعتبات الفنية، أما المبحث الثالث فقد تناول أدوات البناء الفني في الرواية وفضاء الرواية زمانيا ومكانيا.

ويتضح من تلك الدراسة أنها تتقاطع مع هذا البحث في موضوع العتبات، غير أن مؤلفها لم يعالج العتبات الداخلية والخارجية وفق خطاب الأقلية وكيف أنها في حقيقتها تُعدُّ إشارات لغوية لهذا النوع من الخطاب في هذا العمل، فخطاب الأقلية خطاب يحمل أبعادًا داخلية تصب في طبيعة العلاقة الاجتماعية بين فئات المجتمع المتعدد الأصوات داخل الرواية، وتُستجلى بفك الرموز التي تكون في لغتها، ومن أوضحها العتبات التي سيتناولها هذا البحث للدلالة على أن الكاتب استخدمها ليدعم خطاب الأقلية الإرترية في هذا العمل الأدبي.

أما **منهج البحث** فهو المنهج التحليلي الوصفي، الذي يتتبع تلك العتبات السيميائية مستظهرا مدلولاتها في الخطاب الروائي، وكيف أنها إشارات لخطاب الأقلية التي تعتمد على معاني الضدية بين مركز السلطة المجتمعية وهامشها في هذه الرواية التي كتبها شخص يعاني من حالة "اللاانتماء" الكامل لأي من المجتمعين؛ سواء المجتمع السعودي، أو المجتمع الإرتري.

المبحث الأول

الأقلية في الخطاب الروائي

إنه بأي فرضية عقدنا الحديث عن بداية الفن الروائي، سواء بولادته مع المدينة الحديثة، أو بربطه مع بروز الطبقة البرجوازية، أو مع ظهور الآلة، أو مع التكوين التعددي للمجتمعات الإنسانية، أو بمرحلة ما بعد الكولونيالية؛ فإن موضوع الأقليات لن يكون في منأى عن أيٍ من تلك الفرضيات، وخطاب الأقلية في ظل المدينة الحديثة التي خلقت التعددية المجتمعية جاء نتيجة للإثنية العرقية والدينية والقومية، وسؤاله حاضر بقوة في البعد الفلسفي الثقافي للنتاج الإنساني في القرن التاسع عشر وما بعده، خاصة في دراسة الأعمال الروائية الكبرى التي تقوم على تعددية الأصوات وتفسيرها وتحليلها، والتعبير عن الأفراد، والبحث في معادلة المركز والهامش، وهي روايات تنبني في الغالب على تراكم الجوانب النفسية والاجتماعية والمعرفية والميتافيزيقية والوجودية واللغوية والإيديولوجية المحيطة بكاتب النص الروائي.

ومصطلح "الأقلية" رغم إشارته المباشرة للفئة (الأقل) عددًا في المجتمع؛ فإن ماهية "الأقلية" وطبيعتها في مجتمع ما؛ قد لا تكون محكومة بالعدد فحسب، "وإنما هي أيضًا بالقوة والتأثير، كما أن العدد الذي يكون أقلية في مكان قد يكون أكثرية في مكان آخر وهكذا. بل إن فردًا واحدًا يملك القوة يكون أكثرية بالقياس إلى جموع لا تملك القوة فتكون أكثرية" [(١)]، وقد يكون الخدم أكثر من السادة، والنساء أكثر من الرجال، والجهلة أكثر من العلماء، واللاجئون أكثر من المواطنين الأصليين، لكن السلطة ليست في أيديهم!

وحين يصبح لفئة الأقلية صوت يعبر عنها وعن احتياجاتها وموقعها في مقابل الأكثرية؛ يكون النظر إلى صاحب ذلك الصوت أكثر تأنيًا وأطول تأملًا وأشد احترازًا؛ ذلك لأن خطابه في الواقع يخوض معركة مع جهتين؛ الأولى مع المركز الذي يسعى إلى زحزحته من موقع القوة والتأثير، والأخرى مع الهامش الذي يحاول دفعه إلى موقع أكثر قوة وتأثيرًا، ومن المفترض رصد تلك المعركة وآثارها من الجهتين كلتيهما.

وليس جديدًا أن تتمحور الرواية بصورة عامة، والرواية العربية بصورة خاصة، حول موضوع الأقليات في المجتمعات، وأن تتناول الحالة المضنية لأفرادها، فهكذا كان يفعل الأدب الشعبي العربي قديمًا في حكاياته المروية على شفاه العامة، وهو أدب ينتمي إلى ثقافة الأمة ولا ينفك عنها، وفيه "يعمد الراوي الشعبي إلى الانتصار للهامش عبر السرد الشفهي، مما يمثل محاولة فنية لتعديل نسق القيم الذي يختل حين يطغى المركز، ويقصي الهامش، فنجد الوعي الجمعي ينتصر لهذا الهامش عبر الفن، وكأنه انتصار القوة الذي يأمل الضمير الجمعي أن يتحول إلى انتصار الفعل" [٢]، واشتغال الروائيين الآن على الطبقات المهمشة والأقليات المجتمعية يعدُّ انتصارًا لقيم وفرص الأقلية في ظل طغيان قيم وفرص الأكثرية، ويعدُّ -أيضًا- محاولة لخلق التوازن في طبقات المجتمع الواحد، ومحاولة أخرى لخلق الإيمان بالعدالة وتكافؤ الفرص في الوعي الجمعي، حتى وإن بدا ذلك مستحيلًا في الواقع.

وقد يؤدي الحماس في طرح موضوع الأقليات وإبراز حقوقهم، والرغبة القوية في الانتصار لهم بالكتابة الروائية، إلى خلق خطاب مبالغ فيه، يصف واقع تلك الأقليات بالكثير من العبارات التي فيها ادعاء المظلومية، وربما تحمل أفكارًا لا تدخل في خطاب الكراهية ضد الأكثرية، لمجرد أنها أكثرية فقط! وبوعي أو بدون وعي؛ يصبح الروائي -أحيانًا- منحازًا بطريقة فيها الكثير من الحماس غير المنضبط إلى الأقليات، ويكون مدافعًا عن قضاياهم بأسلوب فيه الكثير من التجني، غاضًا الطرف عن الممارسات السلبية لتلك الأقليات في (الفكر، والسلوك، والأخلاق، والأمن وغير ذلك) ومسلطًا الضوء على ممارسات الأكثرية التي -بالتأكيد- لا تخلو من أخطاء وأخطار، خاصة إذا كان ذلك الروائي منتميًا إلى فئة أقلية في حياته الواقعية، فيكتب بقلم المحامي، ويغدو عنصريًا أكثر من مخالفيه، ويخلق خطابًا أقليًا أشد ضراوة وأسوأ عاقبة وأثرًا مع مرور الزمن؛ لأن أفراد مجتمعه الذين يتأثرون به يتوارثون شعور التظلم جيلًا بعد جيل، ويضيق عليهم الخناق فترة تلو فترة، ويتكاثرون وهم ما زالوا أقلية في رأي الأكثرية، فيلبي هذا

الخطاب حاجاتهم النفسية، ويؤمنون بضرورة المقاومة وحتمية الصراع، الذي ربما أصبح صراعًا على البقاء، بدلًا من أن يكون صراعًا من أجل التوازن وتكافؤ الفرص والعدالة والحصول على الحقوق! [٣]

والكاتب حين يمارس حقه المشروع في التعبير عن أفكاره وانتماءاته، ويوجه خطابه في خدمة قضاياه الوجودية، وفي معالجة همومه النفسية والاجتماعية؛ تتأثر لغته، وينعكس ذلك على رسمه لشخصياته، وتصبح في الكلام دلالات غير ملفوظة، تدرك أحيانًا دون علاقة معلنة وواضحة، "ومن هنا اتجه تحليل الخطاب إلى استنباط القواعد المتحكمة في هذه التوقعات الدلالية [٤]، وارتكز على استظهار اللغة الفنية الخاصة بالرواية، "وإذا كان الأدب بعامة، والرواية بخاصة، شكلا ثقافيا يستظهر بلغته الفنية، ويهدف إلى توصيل رسالة فكرية تأثيرية تتشكل في سياق اجتماعي ثقافي تاريخي معين، فإن الروائي بوعي مباشر أو بغيره، لابد أن يجسد خطابا ما في عمله الروائي، وهذا الخطاب هو نتاج تفاعل وعيه ومرجعاته الفكرية مع أسئلة الواقع وحركة الحياة" (٤).

المبحث الثاني

إشارات الخطاب الأقلّي في العتبات الخارجية

١- عتبة الغلاف الأمامي

من خلال العتبة الأولى للرواية، التي عادة ما تكون "الغلاف الأمامي"؛ نرى في غلاف رواية "سمراويت" صورة امرأة بزي إفريقي، وألوان برتقالية زاهية، وهي تعبر الصحراء مطرقة برأسها، ماشية على قدميها، تحمل من المتاع الشيء القليل، وهي صورة التقطها المصور العالمي إريك لافورغ (Eric Laffogue)، وفيها إشارة إلى معنى الارتحال الشاق، والراحلون المنهكون دائمًا يعيشون على الهامش، سواء الهامش المكاني المتمثل في الطرق والمطارات والموانئ والصحاري والبحار وغيرها، أو الهامش المعنوي المتمثل في فكرة العبور، وعدم الاستقرار، والحاجة لمساعدة الآخرين، وهي فكرة تلازم الأقليات بجميع أشكالها، ويمكن القول أن صورة المرأة في هذا الغلاف -أيضًا- وهي "تتجه إلى الحقول لتبحث عن رزقها مرتدية اللباس الإرتيري؛ ما هي إلا

أرتيريا الوطن الأم الذي دارت فيه معظم أحداث القصة، بمقاهيها وتاريخها وشوارعها وأزقة مدنها" [٥].

وحين تبدأ العتبات في الرواية بمثل هذه العَمْدية في رسم الغلاف وفي اختيار ألوانه؛ فإن هذا يدل على أن الروائي يضع لبنة أولى للفكرة التي يريد لقارئه أن يعتنقها معه، ليدلف بعدها إلى عوالم الرواية وفضاءاتها، وإلى أحداثها وشخصياتها، وكل ذلك لا يكون إلا بوجود لغة معبرة فنيًا عن هذه العناصر كلها، واللغة " مصممة -بقصد أو بدون قصد- من أجل إبراز أو تكثيف المادة المرتبطة بها" [٦].

٢- عتبة الغلاف الخلفي

"الغلاف الخلفي للرواية هو الإطار الثاني لغلاف الرواية، وهو فضاء لنصوص موازية متباينة" [٧]، وفي الغلاف الخلفي لرواية سمراويت يظهر اسم المؤلف والعنوان في زاويتها اليمنى العلوية، ثم تندرج أسفل منه خمسة نصوص لخمس صحف من كبريات الصحف المشهورة المهمة في الوطن العربي، وهي: الوطن القطرية، والخليج الإماراتية، والوطن السعودية، والجزيرة نت، والحياة اللندنية، وكل تلك النصوص الخمسة تشابهت في تعليقها على الرواية، وحملت إشارات متشابهة تصب في موضوع واحد، ألا وهو اكتشاف الروائي لهويته ولوطنه "إرتيريا":

الصحيفة	تعليقها
الوطن القطرية	"سمراويت ليست مجرد رواية، إنها اكتشاف. اكتشاف باهر للوطن.. واكتشاف باهر للحب. واكتشاف باهر لمعنى الحياة"
الخليج الإماراتية	"سيرة وطن بتاريخه وأبطاله وناسه وجمالياته وتناقضاته، رواية جميلة، فيها حرارة المعاناة والاستكشاف، وتتمتع بأسلوب سهل سلس"
الوطن السعودية	رواية مشحونة بنصف حنين، ونصف غربة، ونصف وطنية، ونصف انتماء، ونصف وحشة، وصفحات شاسعة من الهوية المتشظية."
الجزيرة نت	أحد الأعمال الافتتاحية الكبرى في شرق أفريقيا.. بوابة لبلد لا يعرف عنه الناس في الوطن العربي شيئاً.. هنا عمل سيتذكره الإرتريون الناطقون بالعربية لأجيال عديدة"
الحياة اللندنية	عمل يعرض للشتات الإرتري خلال العقول الأربعة الماضية، قصة الحرب والحب في حياة الإرتريين.. سمراويت هي "التغريبة" الإرترية"

بالنظر إلى الكلمات الموسومة في الجدول الماضي (اكتشاف، الوطن، استكشاف، حنين، غربة، وطنية، انتماء، الهوية المتشظية، البلد، الإرتريون، الشتات الإرتري، التغريبة الإرترية) يمكننا أن نكوّن الفكرة الأساس من هذه الرواية حتى قبل قراءتها، ألا وهي فكرة الاستكشاف والبحث عن الذات والهوية المتشظية الإرترية في البحث عن الوطن الأم، وليس أصدق دلالة على غرض المؤلف في هذه الرواية من هذه النصوص الموازية، التي ارتضاها بنفسه ليؤطر بها روايته في طبعاتها التالية للطبعة الأولى، وهو اختيار يدل على الموافقة لما ورد فيها من معاني وأفكار وتفسيرات لموضوع الرواية ومقصدها، وبذلك تصبح إشاراتها المبثوثة فيها من أقوى الإشارات الدالة على خطاب المؤلف في العتبات المدروسة كلها؛ لأن ارتضاء المؤلف لما يكتبه الآخرون عنه وعن نتاجه، وتبنيه له بإبرازه في هذا الموضع من الرواية بالذات، هو أقصى درجات الاعتراف بالتفسيرات والتأويلات الواردة فيه، وهو بهذا يؤدي وظيفة من أهم وظائف العتبات النصية، ألا وهي وظيفة تحديد مضمون النص والغاية منه، وهي عادة ما تكون في كلمة الغلاف الخارجي، أو في النصوص المنتقاة للتعبير عما تكتنفه الرواية من مضامين وأفكار، حيث "تمتلك قصدية خاصة لأن طبيعة سياقها التداولي يجعل منها نصًا يبرز خاصية التكثيف في عرض الإخبار الحكائي" [٨].

المبحث الثالث

إشارات الخطاب الأقلّي في العتبات الداخلية

١- عتبة العنوان

العنوان هو أولى المحطات التي تتجلى فيها اللغة الروائية، والعتبة الثانية التي يمكن أن يستشف منها طبيعة المادة الحكائية لهذه الرواية، ولقد أسهمت جهود الكثير من النقاد والمحللين الدارسين للنصوص الأدبية في إبراز ما عُرف في الدراسات النقدية الحديثة بـ: علم العنوان "الذي يعتمد على التحليل اللغوي التفصيلي لمكونات العنوان، والبحث عن امتداداتها في النص، وفي السياق الأدبي والثقافي بعامة" [٩]، ومحاولة النظر في طبيعة العنوان هي محاولة لإلقاء الضوء على متن الرواية، واستجلاء البناء الدلالي للنص، بل إن العنوان له وظيفة مهمة ورئيسة في إدراك الغموض الذي يكتنف النص الأدبي أحيانا، يقول فان دايك: "وقد بينت التجارب أنه -بوجه خاص- حين يكون النص غامضًا، أو مُلبِسًا، أ صعبًا، فإن للعنوان وظيفة إدراكية مهمة لفهم النص" [١٠]، ولا يمكن أن يحلل النص الروائي مالم يكن هناك تحليل لحضور العنوان في مستهلها، "فأي عنوان لأي كتاب يكون عبارة صغيرة، تعكس عادة عالم النص المعقد الشاسع الأطراف" [١١].

وسنتناول العنوان هنا وفق سيميائية الفيلسوف الأمريكي شارل ساندرس بيرس (Ch.S.Perice) (١٨٣٨- ١٩١٤م) الذي يعتمد في تفسيراته على ثلاثة أبعاد: البعد التداولي، والبعد الدلالي، والبعد التركيبي.

- أما البعد التداولي: ويعنى بدراسة العلاقة بين الدلائل في ضوء اللغة التداولية، فيظهر في طبيعة هذا الاسم الإريتري الكثير التداول في إرتيريا "سمراويت"، وفي جعله عنوانا للرواية، حيث يوجه الأنظار -منذ البدء- إلى طبيعة الشخصيات الرئيسة في الأحداث، ويوحي بنوعية الأحداث التي تعود إلى جذور الكاتب، ولا تنفك عن الواقع في نفس الوقت، وهو اسم لإحدى أبرز شخصيات الرواية، وإلى تأثير الأنثى في حياته، المتجسدة في تلك الفتاة التي أحبها بطل القصة وتعرف عليها في موطنه الأصلي، رغم أن هيئة

الأنثى على الغلاف لا تمثل شخصية "سمراويت" الأنثى في متن القصة، التي كانت علاقته بها عابرة، وقد أعجب بها إعجابا حقيقيا، تماما كما تعرف على وطنه وأعجب به، ثم في الأخير حُرم الارتباط بتلك الفتاة لظروف اجتماعية، منها ظروف السفر والبعد القَدَرِي القَسْري، ووهي ذات الأسباب التي منعته من العيش في وطنه.

- وأما البعد الدلالي فلا يتبين من العنوان للوهلة الأولى، حيث لا يمكن للقارئ معرفة المقصود من هذه الكلمة الحيادية في قراءته الأولى لها، "فسمراويت" بالإمكان تفسيرها على أنها مدينة مثلاً، لكن بروز صورة الفتاة يقربها لأن تكون دالة عليها، رغم أن صورة الفتاة على الغلاف لا تشير إلى صفة من صفات الشخصية "سمراويت" داخل النص، تلك الشخصية المغتربة التي تجسد معنى الوطن المستعصي الغائب الذي يصعب الارتباط به والبقاء معه وفيه، ويستحيل –أيضاً- الانفكاك عنه بصورة كاملة.
- وأخيرا يمكننا أن نستشف البعد التركيبي من حروف هذا الاسم، التي لو تأملناها لوجدنا أن الشطر الأول منها وهو: "سمر" يشير في العربية إلى معنى اللون الغامق، والبشرة السمراء الغامقة كان لها تاريخ مع الاضطهاد والعبودية والرق والمعاناة في كثير من البلدان التي انتقلت إليها، ومنها البلاد العربية، وكذلك أصحاب البشرة السمراء في أوروبا وأمريكا كانوا ينتمون للأقليات التي تعاني من تسلط الأكثرية، ومن قلة ذات اليد، ومن عدم القدرة على صناعة وتحديد المصير، وفي ذلك تكريس منذ البدء لفكرة التبعية واللاانتماء، التي ينزع الكاتب لمعالجتها في روايته هذه، "والعنونة جزء لا يتجزأ من إستراتيجية الكتابة لدى الناص، لاصطياد القارئ، وإشراكه في لعبة القراءة" [١٢].

ورواية "سمراويت" هي الوحيدة بين أعمال كاتبها التي جاء عنوانها في كلمة واحدة، ولا ننفي أن المصادفة قد تلعب دورًا في ذلك، لكن صياغة العنوان هنا بكلمة واحدة مفردة، ومجيئها اسمًا لأبرز الشخصيات وأقواها ارتباطًا ببطل القصة؛ له دلالة وثيقة بفكرتها، التي تتمحور حول فتاة يستحيل الزواج منها، وحول وطن يستحيل العيش فيه، والاسم المفرد يستوجب تقدير مبتدأ محذوف قبله، أو خبر محذوف بعده [١٣]، وهو

في كل الأحوال عنوان قصير، "وكلما تقلص المستوى المعجمي للعنوان؛ اكتسب حرية أكبر في الإيحاء، وإنتاج الدلالات [١٤]، وللوقوف على حقيقة الدلالات المستوحاة من النص، لابد من القراءة للمتن بصورة متأنية فاحصة، والبحث عن قرائن أخرى على مستوى العتبات الداخلية -مثلًا- ومن ذلك الإهداء والنصوص المفتاحية.

٢- عتبة الإهداء

الإهداء من النصوص الموازية أو المحيطة بالنص الروائي الأصلي، تناولته الشعرية الحديثة كونه إحدى العتبات الخارجية التي تواجه القارئ قبل الدخول في النص، وأحد ملامحه الشكلية التي تسبق الولوج في أعماقه، "والشكل مهما كان عتبة أو تعبيرًا أو صياغة أو مادة مطبعية؛ يحمل دلالات معينة، يقصدها المبدع أو لا يقصدها" [١٥]، وهو عرف أدبي يحمل فكرة رمزية لبعد اجتماعي أو فلسفي، ويقدم لمعلوم أو لمجهول، ولفرد أو لجماعة، ولحقيقة أو لخيال، ولذلك فأهميته تنبع من طريقة تقديمة من قبل المؤلِّف، في مبتدأ هذا المؤلَّف، باعتباره "لا يخلو من موجهات استراتيجية الكتابة" [١٦].

وفي صفحة الإهداء لرواية "سمراويت" كتب المؤلف الآتي:

"إلى روح أبي..

وفاطمتيَّ: أمي وزوجتي..

وسمراويت، التي تأبى حتى الآن..

أن تقبلني صديقًا على الفيس بوك!" [١٧]

في السطرين الأول والثاني؛ إهداء مباشر اعتباري (Appraisive) لا يحمل أي بُعدٍ رمزي لفكرة الرواية وموضوعها، والشخصيات المذكورة فيهما شخصيات واقعية في حياة المؤلف، أراد أن يذكر امتنانه لهم، بينما نجد في السطرين الثالث والرابع إهداء تبييني (designetive)، فيه تسمية مباشرة لأبرز شخصيات الرواية، الفتاة التي أحبها البطل في الغربة، وأراد أن يتزوجها لكن الظروف حالت بينه وبين ما اشتهى، تماما كما حالت بينه وبين العيش في بلده الأصل، وكل الهواجس والأحداث المتعلقة بهذه الشخصية

العصية، تجعلها في إطار واحد مع فكرة الوطن العصيّ، بل تسوغ تجسيدها لهذه الفكرة، ولهذا فعبارة "تأبى حتى الآن أن تقبلني" في نهاية هذا الإهداء؛ هي مربط الفرس، وهي المحك في فهم تلك العلاقة المجازية بين شخصية "سمراويت" والوطن، حيث أبى كل منهما أن يقبل بعمر، الذي مازال يبحث عن نفسه من خلالهما، وتلك هي زاوية الإضاءة الأولى التي من خلالها نقرأ العمل الأدبي، "ولعل مقارنة نص الإهداء بالعمل الأدبي من أول دواعي فهمه بالشكل الصحيح؛ لأنه تعبير صادق عن مشاعر المبدع الذي ينتج عمله الأدبي من صميم تجربته الخاصة، أو من تجارب عاشها أو عايشها لأناس آخرين، لذا يغدو من المكابرة إنكار أي صلة وثيقة بين العلامتين (الإهداء والعمل الأدبي)" [١٨].

٣- عتبات التصدير النصية

٤- تُعَدُّ عتبات التصدير النصية لفصول الرواية من النصوص المضمَّنة التي تؤدي معنى موازيًا لا يقل أهمية عن معنى المتن الروائي نفسه، بل ربما كانت محملة بأبعاد رمزية ذات تأثير أقوى من المتن، ورواية "سمراويت" تحتوي على اثنين وثلاثين فصلًا، افتتحت كلها بعتبات، عبارة عن مقاطع ونصوص لشاعرين اثنين فقط، أحدهما إرتري وهو محمد الشيخ (مدني)، والآخر سعودي وهو محمد الثبيتي، ما عدا الفصل الأول من تلك الرواية، فقد كان خاليا من أي نص افتتاحي، ولعل الكاتب أراد أن يجعل هذا الفصل حياديًا، ومدخلًا محفزًا للقارئ؛ فيتأهب ويستعد لأحداث قصته القادمة في بقية الفصول، وقد اعتمد الراوي في بدايته على تقنية البداية من النهاية (Flashback)، يؤكد ذلك حوارُه مع "سلام"، نادلة المقهى الذي التقى فيه "بسمراويت"، وهذه هندسة نصية افتتاحية سيأتي الحديث عنها في الجزء الخاص بعتبة الاستهلال "الهندسة النصية لفاتحة الرواية" من هذا البحث، بينما لا يكاد مقطع من عتبات الفصول اللاحقة يخلو من معنى التهميش، أو الغربة، أو الرحيل، أو التيه، أو التعب، أو الشوق، وكل تلك المعاني ملازمة لحياة الأفراد في مجتمعات الأقليات.

والكاتب حين يراوح في افتتاح فصوله بنصوص شاعرين مختلفين أصلًا ومنشأً وخلفيةً ثقافيةً؛ إنما يريد أن يؤطر هذا النص الروائي بفكرة اللاانتماء التي عاشها حقيقة ويريد أن يتبناها في هذا العمل، ويريد -أيضاً- لهذا العمل أن يعكس حالةَ الحيرة المرجعية التي يعاني منها، كما يريد أن يشبع خطابه بنصوص موازية تتمازج مع نصه هذا.

ويوضح الجدول الآتي مجموعة من عتبات التصدير التي تحمل إشارات لغوية تحيل على المعاني المذكورة:

الفصل	العتبة	الشاعر
الثاني	يا وارد الماء علّ المطايا وصب لنا وطنًا في عيون الصبايا فمازال في الغيب منتجع للشقاء وفي الريح من تعب الراحلين بقايا	م. الثبيتي
الثالث	لعل اللقاء يكون بعيد اللقاء أُسيُّجك الآن بالانتماء تعالي، فلا غير لي غير غيرك	م. الشيخ
الرابع	هاتها كالشمس تمتاح انتظاري وتذيب الوجد في عمق اغترابي	م. الثبيتي
الخامس	أدوزن أغنيتي الثانية وأرفض أن نكتفي بالرصيف	م. الشيخ
السابع	لكل الذين يموتون قبل الميعاد وكل اليؤرقهم عشق هذي البلاد وكل العباد... إلى آخر القائمة	م. الشيخ
التاسع	فهات على هامش الوقت نافلةً ركعتين من النازعات إلى الزلزلة	م. الشيخ
الرابع عشر	وأفقت من تعب القرى فإذا المدينة شارع قفر ونافذة تطل على السماء	م. الثبيتي
السادس عشر	للجرح وجهان: من ظمأٍ نادمته الحناجر من وطنٍ للطريق مهاجر	م.؟ الثبيتي
السابع عشر	لا تحد الفظ جحيمك أو فغادر للأبد	م. الشيخ

العشرون	من يقاسمني الجوع والشعر والصعلكة من يقاسمني التهلكة؟؟	م. الثبيتي
الحادي والعشرون	..بأن تهربوا للأمام وأن تزحفوا للجحيم ببطء ولكن بكل انتظام	م. الشيخ
الثاني والعشرون	يأبى دمي أن يستريح تشده امرأة وريح	م. الثبيتي
الرابع والعشرون	وعاد إلى أول المنحنى باحثا عن يديه تنامى بداخله الموت فاخضر ثوب الحياة عليه	م. الثبيتي
الخامس والعشرون	لنارٍ تغادر بركانها أنتمي والمياه التي تحتمي.. من مصباتها بالطمي قطرة قطرة ترتمي!	م. الشيخ
السابع والعشرون	كل المسافات نصف اتجاه	م. الشيخ
التاسع والعشرون	لنا الآن أن نستعيد ببعض القصور جميع الخيام	م. الشيخ

هذه الكلمات الموسومة في الجدول السابق (وطنا، الراحلين، الانتماء، اللقاء، اغترابي، الرصيف، البلاد، هامش، القرى، المدينة، غادر، الصعلكة، تهربوا، يستريح، باحثًا، أنتمي، المسافات، الخيام) هي إشارات مرجعية مباشرة وغير مباشرة لخطاب أقلي، ونوافذ سيميائية لفضاء روائي، تدخل القارئ في رغبة الاكتشاف لمقاصد المؤلف ولبقية عناصر قصته وأحداثها، وهي وإن لم تكن من نص الروائي نفسه، إلا أن استعماله لها في بداية الفصول وتصديره لها بهذه الكيفية وهذا التكثيف يُعد عملاً موازياً، لا يقل أهمية عن النص الأصلي من حيث تأكيد الفكرة، وترسيخ الدلالة، وصناعة مشهدية افتتاحية وضاحة، وتعميق خطاب أقلي في جميع أجزاء الرواية، ينطوي على معنى الارتحال واللانتماء والهامشية، ليصنع نسقا دلاليا من مجموعة من العلامات السيميائية في تلك العتبات، متعاضدة مع المتن.

وحيث لم يضع المؤلف عناوين فرعية لفصوله؛ فقد حملت هذه النصوص التصديرية على عاتقها وظيفة العناوين من استقلاليتها ومن شكل الخط وحجمه، ومن تتابعها على نفس النسق، و"التصدير هو تركيب لغوي يقوم على الاقتباس أو الاستشهاد بنص من ثقافة معينه، أو مصاغ صياغة تتكئ على معطى من معطيات تلك الثقافة" [١٩].[١٠]

٥- عتبة الاستهلال "الهندسة النصية لفاتحة الرواية"

تمتاز الكتابة الروائية بعناصر فنية كثيرة من أهمها اللغة، وإذا كانت الرواية فضاء لغويا بامتياز؛ فإن أهم مراحل اللغة الروائية هي البداية، سواء بداية الرواية، أو بدايات الفصول، التي منها يأخذ القارئ الفكرة الأولى، ويكوّن الانطباع الأول، وكثير من الروائيين يعتنون بفاتحات فصولهم عناية فائقة، ويظلون وقتا طويلا يفكرون في كيفية الاستهلال لقصتهم، في محاولة " لاستقطاب القارئ وإثارة فضول القراءة لديه من خلال موجّه يعمل على حل مشكلات النص من خلال تقديم مفاتيح دلالية كاشفة تسهم في كشف إمكانات مهمة في فهم النص وتأويله" [١٩].

وفي "سمراويت" تأتي فاتحة الرواية في صفحة واحدة، كان واضًحا أن الكاتب لا يريدها فصلًا مستقلًا، وأراد أن يتحقق فيها أمران: التشويق، والتكثيف، أما التشويق فيجعل القارئ يستقبل رموزًا تجذب انتباهه وتستدعيه للربط بينها، فيعمل على جعلها أساسًا للقصة، ومرتكزًا للأحداث، ومن تلك الرموز في رواية "سمراويت" شخصية سلام، ومدينة مودرنا، واللغة التغرية، وأما التكثيف فوضع كل تلك الرموز في مقدمة الرواية في مساحة ضئيلة لا تتجاوز الخمسة أسطر:

"ما إن لمحتني سلام أقترب من مودرنا، حتى سارعت إلى تنظيف الطاولة التي اعتدتها.

لم تستغرق وقتا في استحضار ملامحي، ولم يفاجئني ذلك، فالصيف الفائت جعلني مألوفًا بما يكفي هنا.

[١] عتبات النص البنية والدلالة في رواية غارديناء الرقيبات، محمد أحمد، الإيضاح ٣٦، شمارة، (٢٠١٨): ٩٠

"سني ماسيام".." [٢٠].

وتلك الرموز في بداية الرواية ليست إلا جزئيات غامضة لم تتكشف بعد للقارئ، الذي يجد من أولى مهامه كشفها والربط بين خيوطها لتتكون له الرؤية الكلية والفكرة العامة والقصة بمجملها في المستقبل، "وقدرة المرء على التوقع تتوقف على مدى وعيه وإدراكه الذي يتأتى من عملية الربط بين مفاهيم وأسس سابقة مبنية على حقائق ثابته وأشياء سوف تحدث في المستقبل استنادًا إلى تلك المفاهيم" [٢١]، وهو ما يمكن أن نختصره بمصطلح التوقع الذي يعني في كثير من الأعمال الدرامية "قدرة المتفرج على التنبؤ بحدث سوف يحدث في المستقبل" [٢٢].

ومن جهة أخرى، فإن حشد هذه الخيوط في المقدمة وجعلها مفتوحة التفسيرات للقارئ؛ يُمَكِّنه من خلق الفضاء الروائي العام، والعثور على "الثيمة" الأساسية منذ البداية، فإذا بنى تصوره المبدئي، ورسم انطباعه الأول بهذه المفردات المتناثرة، سيكون من الشائق تتبعها في متن الرواية في فصولها القادمة، ومن السهل –أيضًا- الدخول إلى عوالمها "فإدخال القارئ عالم الرواية التخييلي بأبعاده كلها، من خلال تقديم الخلفية العامة لهذا العالم والخلفية الخاصة بكل شخصية ليستطيع ربط الخيوط والأحداث التي ستنسج فيما بعد" [٢٣].

الخاتمة

في خاتمة هذا البحث الذي تناول رواية "سمراويت" لحجي جابر، وتتبع إشارات خطاب الأقلية في العتبات الخارجية والداخلية لها، يمكننا إجمال أبرز النتائج في الآتي:

- اتجه الروائي حجي جابر في ممارسة حقه في التعبير عن أفكاره وانتماءاته لمجتمعه الإرتري من خلال هذه الرواية، ووجه خطابه في خدمة قضاياه الوجودية، وفي معالجة همومه النفسية والاجتماعية؛ فتأثرت لغته، وأصبح في الكلام دلالات وأبعاد تدرك من خلال الإشارات المباشرة وغير المباشرة، التي تظهر أحيانًا في العتبات، والعتبات من أقوى نصوص الرواية التي تخاطب اللاوعي، وتتعاضد مكثفة المعنى في ذهن القارئ.

- لم تكن الإشارات الواردة في غلافي الرواية (الأمامي والخلفي) اعتباطية، بل كانت انتقائية بامتياز، فالأمامي كان يحمل بين إطاراته صورة امرأة إرترية تسير في بيئة صحراوية بزي تقليدي خالص مجسدة معنى الارتحال الإرتري، والخلفي يقتبس نصوصًا تثني على الرواية وتشير مباشرة إلى ما فيها من معاني الاغتراب واللاانتماء.

- حين يأتي عنوان الرواية في كلمة واحدة "سمراويت" يعطي مساحة أكبر في التعامل معها من حيث إمدادها بالكلمات ذات الدلالات المتعلقة بالنص ووضعها بعد الكلمة أو قبلها في ذهن المتلقي، والقارئ لهذا العنوان يشعر من الوهلة الأولى أنه ينطق اسمًا عربيًا، يصف امرأة ذات لون أسمر، وهو في الحقيقة من الأسماء المشهورة في إرتريا، واختياره عنوانًا للرواية لم يكن محض المصادفة.

- عتبة الإهداء نص مواز يمكن من خلاله استحضار شخصية من شخصيات الرواية ووضعها ضمن المُهدى لهم، ويمكن –أيضًا- أن يجسد الروائي الوطن بأكمله من خلال تلك الشخصية كما فعل جابر في إهدائه.

- تعمد الكاتب في مفتتحات الفصول المراوحة بين نصوص الشاعر الثبيتي والشاعر الشيخ، الأول سعودي والآخر إرتري، وغالب تلك النصوص تشير إشارة

واضحة إو ضمنية إلى معاني الغربة، والارتحال، والهامشية، الشتات، وغيرها مما يصب في المعنى العام الذي تدور حوله أحداث الرواية كاملة، وهو معنى اللاانتماء بين وطنين لا يقبلان الكاتب تماما كما لا يرفضانه تماما.

- اختار الكاتب أن يبدأ نصه الروائي بهندسة افتتاحية حشد فيها عدداً من الإشارات النصية من خلال مجموعة من الكلمات التي تضيء النص، وتشحذ مخيلة القارئ لاستقبال موضوع الرواية، وتعطي مفاتيح لخطاب أقلي تتعاضد فيه بقية عناصر قصته في رحلته من السعودية إلى إرتريا، مع استحضار الفروقات بين المجتمعين، وتقمص شخصية الباحث عن نفسه ووطنه وانتمائه.

وحيث تناول البحث هذه الرواية بوصفها مثالا على خطاب الأقلية من خلال تتبع الإشارات اللغوية في عتباتها؛ فإن متن الرواية حريٌ بوجود إشارات لهذا الخطاب أيضًا، كما أن وصول البحث إلى هذه النتائج يثبت أن بالإمكان تتبع النصوص الروائية الأخرى لهذا الكاتب واستقراؤها وتحليلها بناء على افتراض أن الكاتب له مشروع فكري واحد، وخطاب روائي متسق في جميع أعماله التي تصب في موضوع "الهوية الإرترية" [٢٤].

قائمة المصادر والمراجع

١. **سعد البازعي.** ٢٠٢، مصائر الرواية. بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، صفحة ٨٧.

٢. **هويدا صالح.** ٢٠١٥، الهامش الاجتماعي في الأدب: قراءة سسيو ثقافية. القاهرة : رؤية للنشر والتوزيع، صفحة ١٤٦,

٣. **حمد الهزاع،** ٢٠٢١، رواية "سمراويت" بين خطاب الأقلية وخطاب الكراهية.. ١٧٧٢١، مكان غير معروف : الجزيرة الثقافية، الجزيرة، صفحة ٢٨,

٤. **رزان محمود إبراهيم.** ٢٠٠٣، خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة. القاهرة : الشروق، صفحة ١٠,

٥. **حميدان افطيش الشرفات.** ٢٠٢٠، أدوات البناء الفني في سمراويت لحجي جابر. مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية. م٤، ع٤، صفحة ١٤٠,

٦. **روجر ب هينكل.** ١٩٨٦، قراءة الرواية: مدخل إلى تقنيات التفسير. [المترجمون] صلاح رزق. القاهرة : دار الآداب، صفحة ٢٤٤,

٧. **موفق رياض نواف مقدادي.** ٢٠١٩، سيميائية العتبات في رواية مي ليالي إيزيس كوبيا ثلاثمائة ليلة وليلة في جحيم العصفورية للروائي واسيني الأعرج. دراسات. م٤٦، ، ع٣، صفحة ١٧٧,

٨. **عبدالفتاح الحجمري.** ١٩٩٦، عتبات النص: البنية والدلالة. الدار البيضاء : شركة الرابطة، الصفحات ٢٢-٢٣,

٩. **سامي العجلان.** ٢٠١٥، إغواء العتبة عنوان القصيدة وأسئلة النقد. بيروت : مؤسسة الانتشار العربي، صفحة ٤٠,

١٠. **تون أ فانديك.** ٢٠٠١، علم النص: مدخل متداخل الاختصاصات. [المترجمون] سعيد البحيري. القاهرة : دار القاهرة للكتاب، الصفحات ٢٤٩-٢٥٠,

١١. **عبدالملك مرتاض.** ١٩٩٥، تحليل الخطاب السردي: معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواي زقاق المدق لنجيب محفوظ. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، صفحة ٢٧٧,

١٢. **خالد حسين.** ٢٠٠٧، في نظرية العنوان. دمشق : دار تكوين، الصفحات ١٥-١٦,

١٣. **محمد عويس.** ١٩٨٨، العنوان في الأدب العربي النشأة والتطور. القاهرة : مكتبة الأنجلو، الصفحات ٤١-,٤٢

١٤. **خالد حسين.** ٢٠٠٨، شؤون العلامات من التشفير إلى التأويل. دمشق : دار تكوين، صفحة ,٢٠٢

١٥. **جميل حمداوي.** ٢٠١٣، عتبة الإهداء. مجلة العربية والترجمة. ، صفحة ,١٦١

١٦. **عبدالنبي ذاكر.** ١٩٩٨، عتبات الكتابة. أكادير : منشورات مجموعات البحث الأكاديمي في الأدب الشخصي، صفحة ,١٣٦

١٧. **حجي جابر.** ٢٠١٩، سمراويت. المغرب : المركز الثقافي العربي، صفحة ٥. المجلد ,٨

١٨. **محمد أبوعدل.** ٢٠١٦، سيميائية العتبات النصية في رواية "أحلام نازفة" لهيفاء بيطار: دراسة في النقد الحديث. مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية). م٣٣، ع٦، صفحة ٩٧٠.

١٩. **محمد صابر عبيد.** ٢٠٠٧، تأويل متهة الحكي في تمظهرات الشكل السردي. مكان غير معروف : دار الحوار للنشر والتوزيع، الصفحات ١٣٠-,١٣١

٢٠. **حجي جابر.** ٢٠١٩، سمراويت. المعرب : المركز الثقافي العربي، صفحة ٧. المجلد ,٨

٢١. **خضير عبيس القريشي.** ٢٠١٩، التمهير في بنية التشويق في أفلام هيتشكوك: الطيور أنموذجًا. مجلة كلية التربية. ع٣٤، صفحة ,٥٥٢

٢٢. **يوجين فال.** ١٩٩٧، فن كتابة السيناريو. [المترجمون] مصطفى محرم. القاهرة : اسم غير معروف، صفحة ,١٥٢

٢٣. **سيزا أحمد قاسم.** ١٩٨٤، بناء الرواية: دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب مجفوظ. القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، الصفحات ٤٣-,٤٤

٢٤. **عادل خميس الزهراني.** ١٤٤٣، من رمضاء الهوية إلى نارها: قلق الأصل والفصل في رواية (رغوة سوداء) لحجي جابر "دراسة سيميائي". مجلة علوم اللغات وآدابها. ع ٢٤، الصفحات ٢٤٥-٢٦٦.